

جامعة النجف الاشرف

وجامعة القرويين

العلامة الشيخ محمد رضا المظفر*

نص المحاضرة القيمة التي القاها سماحة الحجة الشيخ محمد رضا المظفر في
المهرجان الذي اقامته الحكومة المغربية باحدى مدنها المهمة (فاس) بمناسبة
مرور احد عشر قرنا على تأسيس جامعة القرويين في ١٩ ربيع
الثاني ١٣٨٠هـ / ١٠ تشرين الأول ١٩٦٠م

سادتي :

كان في الدعوة الموجهة الي اقتراح بان اكتب عن صدى جامعة القرويين عندنا وكان هذا
الاقتراح الوجيه المناسب مثار حيرة عندي اذ حاولت ان اصغي الى رجوع الصدى في نفسي
عندما اخذت اتساءل من كثير ممن اعرف من رجالات النجف الاشرف بل العراق عن علمهم
بهذه الجامعة الجليلة فما وجدت لصداها رنة عند الكثير الا مجملات مما قرأه بعضهم في بعض
الصحف السيارة او الكتب النادرة، ومن العجيب ان بعضهم لم يسمع حتى باسمها او لا
يعرف موقعها.

ولقد كان من الصعب جدا ان اصار حكم بهذه الحقيقة المرة في موقفي هذا وانتم فرحون
ونحن معكم تحتفلون بمرور احد عشر قرنا على تأسيس هذه الجامعة التي تعزون بها وحق لكم
ولنا ان نعز بها وهي مفخرة من مفاخر العرب والمسلمين حقا .

ولا شك في ان هذا شئ مؤلم جدا ولكني مضطر الى التصريح به وهو في الحقيقة نتيجة
القطيعة التي عزلتنا عن المغرب العربي المسلم وعزلته عنا هذه المدة الطويلة. ولا اظنه يعزب عن
بال احد من الناس سر هذه القطيعة مع توفر وسائل تبادل المعرفة في هذا العصر بنشر الكتب
والصحف بل الاذاعة فان المستعمرين جميع المستعمرين - اخزاهم الله تعالى بما جنوه في حقنا -

* فقيه فذ، مدرس، أديب، شاعر، رئيس جمعية منتدى النشر وعميد كلية الفقه بالنجف الاشرف
(ت ١٣٨٣هـ).

عن: مجلة النجف النجفية س ٤ ع ٦ لسنة ١٣٨٠هـ / ١٩٦٠م.

ارادوا لبلادنا ان تتفكك او اصورها وتتفرق كلمتها ويجهل بعضها بعضا حتى لا يبقى سبيل الى تجاوبها في امالها وآلامها وتوحيد شعورها وبالاخير لينسد الطريق على تعاونها فيما بينها لرد كيد المستعمرين وقد خاب فآلمهم بحمد الله تعالى .

وما اظن جامعة النجف الاشرف اكثر حفا من اختها جامعة القرويين في هذه الناحية فلو اردت ان افتش عن سر ما تنطوي عليه نفوس اخواننا المغاربة لما وجدتهم اكثر علما بجامعتنا منا بجامعتهم والسبب هو السبب فنحن شركاء في هذا الداء الدوي الذي مني به العالم الاسلامي اجمع من قرون مظلمة طويلة الامد حجت عنه كل نور للتعارف . ولم تكن الا هذه الزوايا في النجف الاشرف والازهر الشريف وجامع القرويين وامثالها وفيها خبايا من رجال انقطعوا عن الدنيا زاهدين وانصرفوا في عزلتهم الى العلوم الدينية لا يرمون عنها ولم يخطر ببالهم ان يفكروا في ان ينهضوا بامتهم من كبوات الدهر وعاديات الجهل . وأنى لهم ان يفكروا وهم عزل من سلاح القوة والسلطان .

ونحن في الوقت الذي تكبر هذه الجامعات فيما ادت للمسلمين ولعامة البشر من رسالة ثقافية قيمة . وفيما احتفظت به من التراث الاسلامي والعربي عبر تلك القرون المظلمة بما انجبت من علماء اعلام وأنتجت من آثار علمية نافعة لا نستطيع ان ندفع عنها اللوم اللاذع على انكماشها وتضييق دائرة تثقيفها للمسلمين وقلة وسائل دعوتها ولم تخط - مع الاسف الشديد - في سبيل الخروج عن عزلتها خطوة ذات فائدة تناسب هذا العصر الذي تنكر لها بما بشر به المستعمرون الصليبيون ضد الدين الاسلامي .

وما أكثر شكرنا للحكومة المغربية الجليلة اذ تنبعت لهذه الناحية فأتاحت لنا - نحن المسلمين في الشرق - هذه الفرصة السعيدة وفتحت لنا بها المجال لتبادل التعارف بين أكبر هذه الجامعات الاسلامية القديمة الذي كان يجهل بعضها بعضاً وعسى ان يتاح لنا بعد ذلك التبادل الثقافي فننهض بهذه الجامعات الى المستوى اللائق بها في هذا العصر .

وإني لأتعهد لكم ان انقل إلى جامعة النجف ما أحصل عليه من معلومات مفيدة عن جامعتكم في مقابل ما أحدث به لكم اليوم بإيجاز عن جامعة النجف التي أفخر في تمثيلها في هذه المهرجانات واعتز ان اكون احد ابنائها الذين أنبتهم تربتها وتغذوا من درها بالقدر الذي يسعه انائي الممنوح لي من الباري تعالى . وأعتقد أن هذا الحديث أفيد ما أستطيع التحدث به لكم بهذه المناسبة الجليلة بالذات .

سادتي:

إن جامعة النجف صنو جامعة القرويين في قدم عهدها فقد تأسست أول بناية لها في

القرن الثاني الهجري وهي بناية القبر المطهر قبر سيدنا أمير المؤمنين علي بن ابي طالب عليه السلام بأمر الخليفة العباسي هارون الرشيد. ويظهر ان هذه البناية ما أسرع أن أجتذبت قلوب المؤمنين من زائرين ومجاورين الذين يتعطشون الى الانتهاال من نمر روحية صاحب هذا القبر والاستلهاام من عقيدته الاسلامية العالية وقدسية نفسه الجبارة برغم جفاف هذه البقعة وبعدها عن العمران وهي تقع في صحراء مرتفعة قاحلة محرقة لا ماء فيها ولا كلاً إلا ما كانوا يستنبطونه من ماء اجاج في ابار عميقة الغور.

ولم نتحقق إلى الآن متى كان ابتداء اتخاذها معهداً للدراسات الاسلامية ولكن اذا علمنا انها تقع في ظهر الكوفة والكوفة كانت مركزاً علمياً مشهوداً في تلك القرون يقرب إلينا أن النجف لم تعدم في مجاوريتها من يشتغل بالعلوم الاسلامية يومئذ ولم نعدم الشواهد التاريخية على ذلك مثل بعض الاجازات العلمية التي صدرت من مدينة النجف في ذلك العهد ومثل رواية كتاب فرحة الغري عن عضد الدولة البويهى انه لما زار النجف سنة ٣٧١ هـ وزع مالاً على الفقهاء والفقراء فذكر الفقهاء المجاورين يعطينا نصاً على وجود الحركة العلمية.

ولكن الحقيقة التي يجب ان تقال انه لم يكن لها ذلك الشأن الذي يذكر في مركزها العلمي المرموق ومرجعيتها للتقليد إلا في اواسط القرن الخامس الهجري وذلك بعدما هاجر إليها من بغداد حوالي سنة ٤٤٨ هـ الشيخ ابو جعفر محمد بن الحسن الطوسي العظيم المعروف بشيخ الطائفة صاحب الموسوعات والمؤلفات الخالدة في الحديث والتفسير والفقه وغيرها، ان هذا الرجل من عظماء التاريخ فيما ألف وأسس. وكفى ان يكون له اصلاان كبيران من الاصول الاربعة في الحديث للأمامية هما كتاب التهذيب وكتاب الاستبصار وقد ارسلت هذه الكتب فيما ارسلت من كتب الى خزانة جامعة القرويين وكفى ايضاً ان يكون لهذا الشيخ تأسيس المركز العلمي في النجف.

اعود فأقول إن تاريخ النجف العلمي ومركزها الحساس عند الامامية يتدئ من ذلك العهد واستمرت معهداً للدراسات الاسلامية بين مد وجزر حتى اوائل القرن الثالث عشر حيث القت المرجعية العامة للتقليد عصا ترحالها في النجف وذلك بنبوغ المجتهدين الكبيرين السيد محمد مهدي بحر العلوم والشيخ جعفر كاشف الغطاء بعد أن جابت عدة بلاد في فترات متباعدة كبغداد والحلة وكربلا واصفهان.

ومن هذا العهد الأخير كبرت البنايات لسكنى الطلاب المهاجرين إليها من مختلف البلاد النائية، وهذه البنايات هي التي تسمى بالمدارس وهي اشبه ما تكون بالأقسام الداخلية كما هي عندكم في القرويين، ويبلغ الموجود منها الآن قرابة ٣٠ مدرسة كبيرة وصغيرة بعد أن كانت بناية

الصحن للحرم العلوي هي المأوى الكبير لهم من ابعده العهود، وبعض المدارس التي اندثرت، وفي النجف اليوم حوالي خمسة الاف طالب من مختلف الاقطار الاسلامية كالهند وايران وأفغانستان وباكستان وتبت وما إليها، وتقوم المرجعية العامة بتعيين جرايات شهرية لكل طالب وتعتمد في مواردها المالية على الحقوق الشرعية التي يدفعها المؤمنون في مختلف الاقطار وبعض التبرعات من المحسنين وليس للمرجعية اي مورد حكومي ولا موقوفات معينة ولا علاقة لها بالحكومات على اختلافها في شؤونها الخاصة والعامة مادية او غيرها.

سادتي:

وأهم شيء يحسن ذكره بهذه المناسبة بعد الاشارة إلى تأسيس النجف هو نوع دراستها واسلوبها لتسهيل المقارنة عندكم بجامعة القرويين الجلييلة.

فانها لا تختلف كثيراً عن سائر الجامعات الاسلامية القديمة في نوعية التدريس للعلوم العربية وما إليها في كونها دراسة خصوصية لا صافية وكذلك في اختيار الكتب ولا تزال على الاسلوب القديم في ذلك، وانما تمتاز جامعة النجف كأختها (جامعة قم) بإيران بطريقة تحصيل الاجتهاد في الفقه الذي تخصص بفتح بابه الامامية وغاية الطالب الديني القصوى ان يبلغ هذه الدرجة العليا التي لا ينالها إلا ذو حظ عظيم.

ولذلك تمر على الطالب ثلاث مراحل تدريسية لبلوغ هذه الغاية: -

المرحلة الاولى: مرحلة دراسة (المقدمات) كما يسمونها. والمقصود بالمقدمات النحو والصرف وعلوم البلاغة والمنطق وهي تقرأ في كتب لا يتجاوزونها إلا نادراً كشرح قطر الندى وشروح الفية ابن مالك ومغني اللبيب في النحو والشمسية وغيرها في المنطق وهذه الكتب التي ذكرناها هي نفسها التي تدرس في جامع الازهر وجامعة القرويين - فيما نظن - وتخصص النجف الاشرف بكتب اخرى في بعض هذه العلوم لاسيما المتون الفقهية كالشرائع للمحقق الحلي وشروح هذا الكتاب كثيرة.

وقد وضع محدثكم كتاباً في المنطق بثلاثة اجزاء بدلاً من الكتب القديمة باسلوب سهل جديد وعبارة واضحة وضعته لكلية منتدى النشر قبل اكثر من عشرين عاماً وكاد ان يعم تدريسه الآن في معاهد النجف.

ونوعية الدراسة في هذه المرحلة دراسة فردية على الأكثر وربما اشترك فيها أكثر من طالب واحد فيشكلون حلقة صغيرة، وللطالب الحرية في اختيار المدرس بل الكتاب وليس عليه رقيب إلا نفسه أو ولي أمره، كما ان في هذه المرحلة كسائر المرحلتين الآتيتين للطالب والمدرس

حرية النقد والمناقشة، وطبعاً تكون الحرية في هذه المرحلة محدودة بالقدر الذي يسعه افق الطالب وتفكيره والغرض منها التوجيه والتمرين على قوة الملاحظة.

وكثيراً ما ينضم إلى هذه المرحلة دراسة علم الكلام والعلوم الرياضية وبعض العلوم العربية الأخرى كعلوم العروض والقافية والبديع والنصوص الأدبية وهذا كله حسب رغبة الطالب واستعداده في المشاركة بهذه المعارف ونحوها.

المرحلة الثانية: - مرحلة دراسة (السطوح) كما نسميها وهي دراسة متن الكتب الموضوعية في الفقه الأستدلالي واصول الفقه ويتبع فيها محاكمة الاراء ومناقشتها بجرية كاملة. وعلى الأكثر تجري هذه المرحلة على اسلوب الحلقات حيث يجتمع اكثر من طالب واحد في مجلس احد المدرسين المعروفين ويختلف عدد الطلاب في كل حلقة حسب اختلاف شهرة المدرس في تفوقه في اسلوب التدريس وسعة اطلاعه.

كما ان الحرية مطلقة للطالب في اختيار الكتاب والمدرس والكتب التي يرجع اليها للمطالعة في حدود جرت العادة عليها. وأهم الكتب المعروفة كتاب معالم الاصول وقوانين الاصول ورسائل الشيخ الانصاري وكفاية الاصول هذه في اصول الفقه. وقد وضعت كتاباً في الاصول على نمط كتابي في المنطق يدرس الان في كلية الفقه عندنا. وقدمت نسخاً من الاجزاء المطبوعة الى خزانة جامعة القرويين.

اما الكتب الاستدلالية في الفقه فأشهرها شرح اللمعة الدمشقية الذي هو كتاب ابتدائي في الاستدلال وبعده كتاب رياض العلماء والمسالك ثم المكاسب للشيخ الانصاري وهناك مراجع أخرى كثيرة اوسع دائرة وبجثاً لا يستغني عنها الطالب الباحث.

وإذا انتهى الطالب من هذه المرحلة باتقان استحق ان يسمى (مراهقاً) اي مقارباً لدرجة الاجتهاد وقد ينضم الى هذه المرحلة دراسة علم الكلام والحكمة والفلسفة الالهية والتفسير والحديث واصول الحديث وعلم الرجال.

وهذه المرحلة وما قبلها قد يتجاوزها الطالب في عشر سنين فأكثر في جد متواصل مضمّن وهي مرحلة شاقة يضلّع فيها كثير من الطلاب فيتوقف عن الركب المغذ وبالآخر لا يلحق بالطليعة الداخلة الى باب الاجتهاد الذي لا يتوفّق له إلا أسعد الناس.

وقد لمس كثير من المفكرين صعوبة هذه المرحلة فوجدنا ان من الجدير بنا ان نسعى الى فتح كلية منظمة لتتلافى بها كثيراً من النواقص التي يشتكى منها وذلك بتبسيط بعض الكتب وتنظيم المناهج والدروس والامتحانات، وهكذا تم لجمعية منتدى النشر ان تفتح (كلية الفقه) لتخريج طلاب لهم الاستعداد الكافي لحضور مجالس دروس كبار المجتهدين بالاضافة الى القيام

بواجب الدعوة الى الدين الاسلامي وتبليغ مبادئه بمنابرههم وأقلامهم، وقد اضيف إلى دروس المعارف الاسلامية المعروفة دروس في الاجتماع وعلم النفس والتربية والفلسفة الحديثة والفقہ المقارن والادب وتاريخه والتاريخ الاسلامي بالاضافة الى لغة اجنبية واحدة، ومن سنتين تم اعتراف وزارة المعارف العراقية بنظام هذه الكلية ودرجتها العلمية (درجة الليسانس) وهذه الكلية لا يدرّس فيها إلا حملة اجازات الاجتهاد من كبار المجتهدين او حملة شهادات الجامعات المعترف بها.

المرحلة الأخيرة: - مرحلة (بحث الخارج) وهي حضور مجالس دروس كبار المجتهدين في الفقہ واصوله وهذه هي آخر مراحل الدراسة التي بها قد يبلغ الطالب درجة الاجتهاد وهي اعلى ما في النجف من دراسات عالية وبها امتياز هذه الجامعة عن جامعات العالم الاسلامية في اسلوب التدريس وفي حرية المناقشة والرأي وفي درجتها العلمية العالية.

تكون هذه المرحلة عادة في دورات يتولاها كبار المجتهدين ويبتدئ المدرس منهم في دورة اصولية او فقهية يلقيها بشكل محاضرات يومية فيشرح المسألة شرحا وافيا بعرض الاقوال ومناقشة الآراء فيها وأدلتها ويختار ما ينتهي اليه رأيه مع الدليل. ولكل مدرس طريقته الخاصة في اسلوب البحث وسعة المنهج والاسس العلمية التي يعتمدها .

وهذه الدورات لا تكون الا جماعية يحضر فيها عدد كبير من الطلاب قد يزيد في بعض الظروف على الف طالب وذلك تبعا لشهرة المدرس في تفوقه العلمي ودقة منهجه واسلوب تدريسه . وسميت (بالبحث الخارج) نظرا الى ان التدريس فيها لا يعتمد على رأي خاص ولا عبارة كتاب معين إلا ما قد يتخذ منهجاً للبحث لتسهل على الطلاب المراجعة للتحضير قبل الدرس.

والطلاب في هذه الدورات لهم كامل الحرية في المناقشة و الرأي اثناء المحاضرة وبعدها وكثير من طلابها يكونون مجتهدين في انفسهم حتى قيل ان المجاهد الأكبر استاذ اساتذة هذا الجيل الشيخ محمد كاظم الخراساني صاحب الكفاية المتوفى سنة ١٣٢٩ هـ كان يحضر مجلس درسه من المجتهدين حوالي ثلثمائة طالب مجتهد.

وعلى كل حال فان ميزة هذه الدورات عمق البحث ودقته وسعة افقه والحرية الكاملة في نقد الآراء ومناقشتها مهما كان صاحبها، وبهذا الاسلوب يغذى الطلاب ليتمكنوا من الاعتماد على آرائهم والثقة بنفوسهم ليصبحوا مجتهدين يرجع اليهم الناس وتقلدهم الامة أمورها ويقودونها الى الخير والسعادة.

والى هذا النهج الدراسي يعزى السر في تطور الدراسات الفقهية والاصولية في هذه الجامعة عبر القرون ومن يقرأ كتاباً في الفقه واصوله لاحد أعلام القرن الرابع او الخامس مثلاً ثم يقرأ كتاباً فيه لأحد أعلام هذا القرن يلمس مدى التطور الذي بلغه البحث في دقته واصالته. ولايضاح هذه الجهة جئت معي بنماذج من الكتب التي تدرس وتقرأ في هذه الجامعة اضعها بين يدي السادة العلماء في جامعة القرويين ليطلعوا عليها ولتعكس لديهم المراحل التطورية لهذين العلمين.

وسأحمل معي - ان اذنتم - بعض الكتب التي تدرس في جامعتكم المحترمة لاضعها بين يدي العلماء من موجهي جامعة النجف كوسيلة من اهم وسائل التعارف والتعاون بين الجامعتين وارجو ان نجد في هذه الانواع من الكتب مواضع للإلتقاء تقتضيها جهات التشابه بينهما في وحدة الهدف بنشر الثقافة الاسلامية في اوسع مجالاتها وفي قدمها ونوع دراستها. وحسبنا في ختام هذه الكلمات نسجل لجامعة القرويين واخواتها الجامعات الاسلامية نضالها في الحفاظ على لغة القرآن الكريم وأدبياته وعلومه بعد ان مرت البلاد الاسلامية بقرون مظلمة كادت تقضي على الاسلام واللغة العربية من الاساس.

واني لمتفائل جداً بهذا الوعي الاسلامي العام في هذه الظروف بالذات وهذا التجاوب بالشعور بالحاجة الى التآخي والاتفاق والنهوض بامتنا الى المستوى اللائق بها في هذه الارض التي اخذت علينا من اطرافها وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون.